سورة الزمر

١ـ **سميت (سورة الزمر) من عهد النبيﷺ** ، فقد روى الترمذي عن عائشة قالت: «كان النبيﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل».

وإنما سميت سورة الزمر لوقوع هذا اللفظ فيها دون غيرها من سور القرآن.

وفي تفسير القرطبي عن وهب بن منبه أنه سماها (سورة الغرف) وتناقله المفسرون.

ووجهه أنها ذكر فيها لفظ الغرف، أي بهذه الصيغة دون الغرفات، في قوله ـتعالىـ: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ الآيةَ.

وهي مكية كلها عند الجمهور، وعن ابن عباس أن قوله ـتعالىـ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ الآيات الثلاث.

وقيل: إلى سبع آيات نزلت بالمدينة في قصة وحشيّ قاتل حمزة، وسنده ضعيف، وقصته عليها مخائل القصص.

وعن عمر بن الخطاب أن تلك الآيات نزلت بالمدينة في هشام بن العاصي ابن وائل؛ إذ تأخر عن الهجرة إلى المدينة بعد أن استعد لها.

وفي رواية: أن معه عياشَ بنَ أبي ربيعة وكانا تواعدا على الهجرة إلى المدينة ففُتِنا، فافتتنا.

والأصح أنها نزلت في المشركين ـكما سيأتي عند تفسيرهاـ وما نشأ القول بأنها مدنية إلا لما روي فيها من القصص الضعيفة.

وقيل: نزل ـأيضاًـ قوله ـتعالىـ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾

الآية بالمدينة.

وعن ابن عباس أن قوله -تعالى-: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً ﴾ الآية، نزل بالمدينة.

فبلغت الآيات المختلف فيها تسع آيات.

والمتجه: أنها كلَّها مكيةٌ، وأن ما يخيل أنه نزل في قصص معينة إن صحت أسانيده أن يكون وقع التمثل به في تلك القصص؛ فاشتبه على بعض الرواة بأنه سبب نزول.

وسيأتي عند قوله -تعالى-: ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ أنها نزلت قبيل هجرة المؤمنين إلى الحبشة، أي في سنة خمس قبل الهجرة.

وهي السورة التاسعة والخمسون في ترتيب النزول على المختار، نزلت بعد سورة سبأ وقبل سورة غافر.

وعدت آياتها عند المدنيين والمكيين والبصريين اثنتين وسبعين، وعند أهل الشام ثلاثاً وسبعين، وعند أهل الكوفة خمساً وسبعين. ٢٣/٣١١-٣١٢

٢- **أغراضها:** ابتُدِئَتْ هذه السورة بما هو كالمقدمة للمقصود، وذلك بالتنويه بشأن القرآن تنويهاً تكرر في ستة مواضع[1] من هذه السورة؛ لأن القرآن جامع لأغراضها.

وأغراضُها كثيرةٌ تحوم حولَ إثباتِ تفرد الله بالإلهية، وإبطالِ الشرك فيها.

١- هي قوله: ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ ﴾ الآيتين وقوله: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ الآيه، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ الآيتين، وقوله: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي ﴾ الآية.

وإبطال تَعَلُّلات المشركين لإشراكهم وأكاذيبهم.

ونفيِ ضَرْبٍ من ضروب الإشراك وهو زعمهم أن لله ولداً.

والاستدلالِ على وحدانية الله في الإلهية بدلائلِ تَفَرُّدِهِ بإيجاد العوالم العلوية والسفلية، وبتدبيرِ نظامها وما تحتوي عليه مما لا ينكر المشركون انفراده به.

والخلقِ العجيبِ في أطوار تكوُّنِ الإنسان والحيوان.

والاستدلالِ عليهم بدليل من فعلهم وهو التجاؤهم إلى الله عندما يصيبهم الضُّر.

والدعوةِ إلى التدبر فيما يُلْقى إليهم من القرآن الذي هو أحسن القول.

وتنبيههم على كفرانِهم شُكْرَ النَّعْمَةِ.

والمقابلةِ بين حالهم وبين حال المؤمنين المخلصين لله.

وأن دينَ التوحيدِ هو الذي جاءت به الرسلُ مِنْ قَبْل.

والتحذيرُ من أن يَحِلَّ بالمشركين ما حَلَّ بأهل الشرك من الأمم الماضية.

وإعلامُ المشركين بأنهم وشركاءهم لا يُعْبَأُ بهم عند الله وعند رسولهﷺ فالله غنيٌّ عن عبادتهم، ورسولُه لا يخشاهم ولا يخاف أصنامَهم؛ لأن الله كفاه إياهم جميعاً.

وإثباتُ البعثِ والجزاء؛ لِتُجْزَى كلُّ نفس بما كسبت.

وتمثيلُ البعث بإحياء الأرض بعد موتها.

وَضَربَ لهم مَثَلَهُ بالنوم والإفاقةَ بعده، وأنه يوم الفصل بين المؤمنين والمشركين.

وتمثيلُ حالِ المؤمنين وحال المشركين في الحياتين: الحياةِ الدنيا والحياةِ الآخرة.

ودعاءُ المشركين للإقلاع عن الإسراف على أنفسهم، ودعاءُ المؤمنين للثبات على التقوى، ومفارقة دار الكفر، وخُتِمَت بوصفِ حال يوم الحساب.

وتخلل ذلك كلَّه وعيدٌ ووعدٌ، وأمثالٌ، وترهيبٌ وترغيبٌ، ووعظٌ، وإيماءٌ بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ الآية إلى أن شأن المؤمنين أنهم أهل علم، وأن المشركين أهل جهالة، وذلك تنويه برفعة العلم ومَذَمَّةِ الجهل. ٣١٢/٢٣ـ٣١٣

٣ـ **والإخلاص:** الإمحاض، وعدم الشوب بمغاير، وهو يشمل الإفراد. وسميت السورة التي فيها توحيد الله سورة الإخلاص، أي إفراد الله بالإلهية. وأوثر الإخلاص هنا لإفادة التوحيد، وأخصُّ منه وهو أن تكون عبادة النبيﷺ ربه غير مشوبة بحظ دنيوي كما قال ـتعالىـ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾. ٣١٦/٢٣

٤ـ **والإخلاص في العبادة:** أن يكون الداعي إلى الإتيان بالمأمور وإلى ترك المنهي إرضاء الله ـتعالىـ وهو معنى قولهم: لوجه الله، أي لقصد الامتثال بحيث لا يكون الحظ الدنيوي هو الباعث على العبادة مثل أن يعبد الله؛ ليمدحه الناس بحيث لو تعطل المدح لترك العبادة.

ولذا قيل: الرياء: الشرك الأصغر، أي إذا كان هو الباعث على العمل.

ومثل ذلك أن يقاتل لأجل الغنيمة؛ فلو أيس منها ترك القتال، فأما إن كان للنفس حظ عاجل وكان حاصلاً تبعاً للعبادة وليس هو المقصود فهو مغتفر وخاصة إذا كان ذلك لا تخلو عنه النفوس، أو كان مما يُعين على الاستزادة من العبادة. ٣١٨/٢٣

٥ـ وقال مالك: «إذا كان أول ذلك وأصلُه لله فلا بأس به إن شاء الله، قال الله ـتعالىـ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ وقال: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي

الآخِرِينَ ﴾.

قال مالك: وإنما هذا شيء يكون في القلب لا يُملك وذلك من وسوسة الشيطان؛ ليمنعه من العمل فمن وجد ذلك فلا يُكْسِلْه عن التمادي على فعل الخير ولا يؤيسه من الأجر، وليدفع الشيطان عن نفسه ما استطاع -أي إذا أراد تثبيطه عن العمل- ويجدد النية؛ فإن هذا غير مؤاخذ به إن شاء الله» ا هـ. ٣١٩/٢٣

٦- وأقول: إن القصد إلى العبادة ليتقرب إلى الله؛ فيسأله ما فيه صلاحه في الدنيا -أيضا- لا ضير فيه، لأن تلك العبادة جعلت وسيلة للدعاء ونحوه وكل ذلك تقرب إلى الله -تعالى- وقد شرعت صلوات لكشف الضر، وقضاء الحوائج مثل صلاة الاستخارة وصلاة الضرِّ والحاجة.

ومن المغتفر -أيضاً- أن يقصد العامل من عمله أن يدعوَ له المسلمون، ويذكروه بخير.

وفي هذا المعنى قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه حين خروجه إلى غزوة مؤتة ودعا له المسلمون حين ودّعوه ولمن معه بأن يردهم الله سالمين:

لكنني أسأل الرحمان مغفرةً ... وضربةً ذاتَ فرغ يقذف الزبدا

أو طعنة من يدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقولوا إذا مروا على جدثي ... أرشدك الله من غازٍ وقد رشدا

وقد علمت من تقييدنا الحظ بأنه حظ دنيوي أن رجاء الثواب واتقاء العقاب هو داخل في معنى الإخلاص؛ لأنه راجع إلى التقرب لرضى الله -تعالى-. ٣١٩/٢٣-٣٢٠

٧ـ **وينبغي أن تعلم أن فضيلة الإخلاص في العبادة** هي قضية أخص من قضية صحة العبادة وإجزائها في ذاتها؛ إذ قد تعرُو العبادة عن فضيلة الإخلاص، وهي مع ذلك صحيحة مجزئة، فللإخلاص أثر في تحصيل ثواب العمل، وزيادته، ولا علاقة له بصحة العمل. ٣٢٠/٢٣

٨ـ ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ بدل من جملة: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾.

وضمير المخاطبين هنا راجع إلى الناس لا غير، وهو استدلال بتطور خلق الإنسان على عظيم قدرة الله، وحكمته، ودقائق صنعه.

والتعبير بصيغة المضارع لإفادة تجدد الخلق، وتكرره مع استحضار صورة هذا التطور العجيب استحضاراً بالوجه والإجمال الحاصل للأذهان على حسب اختلاف مراتب إدراكها، ويعلم تفصيلَه علماءُ الطب والعلوم الطبيعية، وقد بينه الحديث عن النبيﷺ: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يُرسل إليه المَلَك فينفخُ فيه الروح**».

وقوله: ﴿ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أي طوراً من الخلق بعد طور آخر يخالفه.

وهذه الأطوار عشرة: الأول: طورُ النطفة، وهي جسم مُخاطي مستدير أبيض خال من الأعضاء يشبه دودة، طوله نحو خمسة مليمتر.

الثاني: طورُ العلقة، وهي تتكون بعد ثلاثة وثلاثين يوماً من وقت استقرار النطفة في الرحم، وهي في حجم النملة الكبيرة طولها نحو ثلاثة عشر مليمتراً يلوح فيها الرأسُ، وتخطيطاتٌ من صور الأعضاء.

الثالث: طور المضغة وهي قطعةٌ حمراء في حجم النحلة.

الرابع: عند استكمال شهرين يصير طولُه ثلاثةَ سنتيمتر، وحجمُ رأسِه بمقدار نصف بقيته، ولا يتميز عُنُقُه، ولا وجهه، ويستمر احمرارُه.

الخامس: في الشهر الثالث يكون طوله خمسة عشر سنتيمتراً، ووزنه مائة غرام، ويبدو رسمُ جبهته وأنفه وحواجبه وأظافره، ويستمر احمرارُ جلدِه.

السادس: في الشهر الرابع يصير طوله عشرين سنتيمتراً، ووزنه ٢٤٠ غرامات، ويظهر في الرأس زَغَبٌ، وتزيد أعضاؤه البطْنية على أعضائه الصدْرية، وتتضح أظافره في أواخر ذلك الشهر.

السابع: في الشهر السادس يصير طوله نحو ثلاثين سنتيمتراً، ووزنه خمسمائة غرام، ويظهر فيه مطبقاً، وتتصلب أظافره.

الثامن: في الشهر السابع يصير طوله ثمانية وثلاثين سنتيمتراً، ويقل احمراراً جِلْدُهُ ويتكاثف جلده، وتظهر على الجلد مادة دهنية دسمة ملتصقة، ويطول شعر رأسه، ويميل إلى الشقرة، وتتقبب جمجمته من الوسط.

التاسع: في الشهر الثامن يزيد غلظه أكثر من ازدياد طوله، ويكون طوله نحو أربعين سنتيمتراً، ووزنه نحو أربعة أرطال أو تزيد، وتقوى حركته.

العاشر: في الشهر التاسع يصير طوله من خمسين إلى ستين سنتيمتراً ووزنه من ستة إلى ثمانية أرطال، ويتم عظمُه، ويتضخم رأسه، ويكثف شعره، وتبتدئ فيه وظائفُ الحياة في الجهاز الهضمي والرئة والقلب، ويصير نماؤه بالغذاء، وتظهر دورة الدم فيه المعروفة بالدورة الجنينية.

و**(الظلمات الثلاث)**: ظلمة بطن الأم، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة،

وهي غشاء من جلد يخلق مع الجنين محيطاً به ليقيه وليكون به استقلاله مما ينجر إليه من الأغذية في دورته الدموية الخاصة به دون أمه.

وفي ذكر هذه الظلمات تنبيهٌ على إحاطة علم الله -تعالى- بالأشياء، ونفوذ قدرته إليها في أشد ما تكون فيه من الخفاء. ٢٣/٣٣٣-٣٣٤

٩- ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾.

وشرح الصدر للإسلام استعارة لقبول العقل هديَ الإسلام ومحبته.

وحقيقة الشرح أنه: شق اللحم، ومنه سمي علم مشاهدة باطن الأسباب وتركيبه علم التشريح؛ لتوقفه على شق الجلد واللحم، والاطلاع على ما تحت ذلك.

ولما كان الإنسان إذا تحير وتردد في أمر يجد في نَفَسه عما يتأثر منه جهازه العصبي، فيظهر تأثره في انضغاط نَفَسه حتى يصير تنفسه عسيراً، ويكثر تنهده، وكان عضو التنفس في الصدر، شبه ذلك الانضغاط بالضيق والانطباق فقالوا: ضاق صدره قال -تعالى- عن موسى: ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي ﴾.

وقالوا: انطبق صدره، وانطبقت أضلاعه، وقالوا في ضد ذلك: شرح اللهُ صَدْرَهُ، وجمع بينهما قوله -تعالى-: ﴿ فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ في سورة الأنعام.

ومنه قولهم: فلان في انشراح، أي يحس كأن صدره شُرح ووُسع.

ومن رشاقة ألفاظ القرآن إيثار كلمة (شرح) للدلالة على قبول الإسلام؛ لأن تعاليم الإسلام وأخلاقه وآدابه تكسب المسلم فرحاً بحاله، ومسرة برضى ربه،

واستخفافاً للمصائب والكوارث؛ لجزمه بأنه على حق في أمره، وأنه مثاب على ضره، وأنه راجٍ رحمةَ ربه في الدنيا والآخرة، ولعدم مخالطة الشك والحيرة ضميره.

فإن المؤمن أول ما يؤمن بأن الله واحد وأن محمداً ﷺ رسوله - ينشرح صدره بأنه ارتفع درجاتٍ عن الحالة التي كان عليها حالة الشرك إن اجتنب عبادة أحجار هو أشرف منها، ومعظم ممتلكاته أشرف منها كفرسه، وجَمَلِه، وعَبْدِهِ، وأَمَتِه، وماشيته، ونخله؛ فشعر بعزة نفسه مرتفعاً عما انكشف له من مهانتها السابقة التي غسلها عنه الإسلامُ، ثم أصبح يقرأ القرآنَ وينطق عن الحكمة، ويتَّسم بمكارم الأخلاق، وأصالة الرأي، ومحبة فعل الخير؛ لوجه الله، لا للرياء والسمعة، ولا ينطوي باطنه على غل ولا حسد ولا كراهية في ذات الله وأصبح يُعد المسلمين لنفسه إخواناً، وقد ترك الاكتساب بالغارة والميسر، واستغنى بالقناعة عن الضراعة إلا إلى الله -تعالى- وإذا مسه ضرٌّ رجا زواله ولم ييأس من تغير حاله، وأيقن أنه مثاب على تحمله وصبره، وإذا مسته نعمةٌ حمد ربه وترقَّب المزيد؛ فكان صدره منشرحاً بالإسلام متلقياً الحوادث باستبصار غير هياب شجاع القلب عزيز النفس. ٢٣/٣٧٩-٣٨٠

١٠- **ومعنى كون القرآن أحسن الحديث:** أنه أفضل الأخبار؛ لأنه اشتمل على أفضل ما تشتمل عليه الأخبار من المعاني النافعة والجامعة لأصول الإيمان، والتشريع، والاستدلال، والتنبيه على عظم العوالم والكائنات، وعجائب تكوين الإنسان، والعقل، وبث الآداب، واستدعاء العقول للنظر والاستدلال الحق، ومن فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه البالغَيْن حد الإعجاز، ومن كونه

مصدقاً لما تقدمه من كتب الله، ومهيمناً عليها.

وفي إسناد إنزاله إلى الله استشهاد على حسنه حيث نزّله العليم بنهاية محاسن الأخبار والذكر. ٢٣/٣٨٥

١١ـ وقد أوصى أئمة سلفنا الصالح أن لا يُذكَر أحدٌ من أصحاب الرسولﷺ إلا بأحسن ذكر، وبالإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس بأن يُلتمس لهم أحسنُ المخارج فيما جرى بين بعضهم، ويظن بهم أحسن المذاهب.

ولذلك اتفق السلف على تفسيق ابن الأشتر النخعي ومن لُفَّ لَفَّه من الثوار الذين جاءوا من مصر إلى المدينة لخلع عثمان بن عفان، واتفقوا على أن أصحاب الجمل، وأصحاب صفين كانوا متنازعين عن اجتهاد، وما دفعهم عليه إلا السعي لصلاح الإسلام، والذب عن جامعته من أن تتسرب إليها الفرقة والاختلال؛ فإنهم جميعاً قدوتنا، وواسطة تبليغ الشريعة إلينا، والطعن في بعضهم يفضي إلى مخاوف في الدين، ولذلك أثبت علماؤنا عدالة جميع أصحاب النبيﷺ. ٢٤/١١

١٢ـ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾.

أُطنبت آيات الوعيد بأفنانها السابقة إطناباً يبلغ من نفوس سامعيها أيَّ مبلغ من الرعب والخوف على رغم تظاهرهم بقلة الاهتمام بها.

وقد يبلغ بهم وقعها مبلغ اليأس من سَعيٍ ينجيهم من وعيدها، فأعقبها الله ببعث الرجاء في نفوسهم؛ للخروج إلى ساحل النجاة إذا أرادوها على عادة هذا الكتاب المجيد من مداواة النفوس بمزيج الترغيب والترهيب.

والكلام استئناف بياني؛ لأن الزواجر السابقة تثير في نفوس المواجَهين بها خاطر التساؤل عن مسالك النجاة؛ فتتلاحم فيها الخواطر الملَكية والخواطر الشيطانية إلى أن يُرسي التلاحم على انتصار إحدى الطائفتين؛ فكان في إنارة السبيل لها ما يسهل خطو الحائرين في ظلمات الشك، ويرتفق بها، ويواسيها بعد أن أثخنتها جروح التوبيخ والزجر والوعيد، ويضمد تلك الجراحة -والحليمُ يزجرُ ويلين- وتثير في نفس النبي ﷺ خشية أن يحيط غضبُ الله بالذين دعاهم إليه فأعرضوا، أو حببهم في الحق فأبغضوا؛ فلعله لا يُفْتَح لهم باب التوبة، ولا تقبل منهم بعد إعراضهم أوبة، ولا سيما بعد أن أمره بتفويض الأمر إلى حُكْمِه، المشتَمِّ منه ترقبُ قطعِ الجدال وفصمِه، فكان أمره لرسوله ﷺ بأن يناديهم بهذه الدعوة؛ تنفيساً عليه، وتفتيحاً لباب الأوبة إليه؛ فهذا كلام ينحل إلى استئنافين فجملة (قل) استئناف لبيان ما ترقَّبه أفضل النبيين ﷺ أي بلغ عني هذا القول. ٢٤/٣٩-٤٠

سورة المؤمن

١ ـ وردت تسمية هذه السورة في السنة (حم المؤمن).

روى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ حم المؤمن**» إلى ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ **وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما**» الحديث.

وبذلك اشتهرت في مصاحف المشرق، وبذلك ترجمها البخاري في صحيحه والترمذي في الجامع.

ووجه التسمية أنها ذكرت فيها قصة مؤمن آل فرعون، ولم تذكر في سورة أخرى بوجه صريح.

والوجه في إعراب هذا الاسم حكايةُ كلمة (حم) ساكنةَ الميم بلفظها الذي يقرأ، وبإضافته إلى لفظ (المؤمن) بتقدير: سورة حم ذِكْرِ المؤمن أو (لفظ المؤمن) وتسمى ـأيضاًـ سورة (الطَّوْل) لقوله ـتعالىـ في أولها: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ وقد تنوسي هذا الاسم.

وتسمى سورة غافر لذكر وصفه ـتعالىـ: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ في أولها.

وبهذا الاسم اشتهرت في مصاحف المغرب.

وهي مكية بالاتفاق وعن الحسن استثناء قوله ـتعالىـ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ لأنه كان يرى أنها نزلت في فرض الصلوات الخمس وأوقاتها.

ويرى أن فرض صلواتٍ خمسٍ وأوقاتها ما وقع إلا في المدينة، وإنما كان المفروض بمكة ركعتين كل يوم من غير توقيت، وهو من بناء ضعيف على ضعيف؛ فإن الجمهور على أن الصلوات الخمس فرضت بمكة في أوقاتها على أنه

لا يتعين أن يكون المراد بالتسبيح في تلك الآية الصلوات، بل يحمل على ظاهر لفظه من كل قول ينزه به الله -تعالى-.

وأشدُّ منه ما روي عن أبي العالية أن قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ نزلت في يهود من المدينة جادلوا النبيﷺ في أمر الدجال، وزعموا أنه منهم.

وقد جاء في أول السورة: ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُو ﴾ والمراد بهم: المشركون.

وهذه السورة جعلت الستين في عداد ترتيب نزول السور نزلت بعد سورة الزمر وقبل سورة فصلت وهي أول سور آل حم نزولاً.

وقد كانت هذه السورة مقروءة عقب وفاة أبي طالب، أي سنة ثلاث قبل الهجرة، لما سيأتي أن أبا بكر قرأ آية: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ ﴾ حين آذى نفر من قريش رسول اللهﷺ حول الكعبة، وإنما اشتد أذى قريش رسول اللهﷺ بعد وفاة أبي طالب.

والسور المفتتحة بكلمة ﴿ حَم ﴾ سبع سور مرتبة في المصاحف على ترتيبها في النزول، ويدعى مجموعها (آل حم) جعلوا لها اسم (آل) لتآخيها في فواتحها.

فكأنها أسرة واحدة وكلمة (آل) تضاف إلى ذي شرف، ويقال لغير المقصود تشريفه: أهل فلان قال الكميت:

قرأنا لكم في آل حاميم آيةً تَأَوَّلَها منا فقيهٌ ومُعرب

يريد قول الله -تعالى- في سورة: ﴿ حم عسق ﴾ ﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ على تأويل غير ابن عباس؛ فلذلك عززه بقوله: تأولها

منا فقيه ومعرب. ٢٤/٧٥_٧٦

٢ـ وأنشد أبو عبيدة أبياتاً لم يسمِّ قائلها :

حلفت بالسبع الألى قد طولت ويمئين بعدها قد أمِّئَت

وبثمان ثنيت وكررت وبالطواسين اللواتي ثلثت

وبالحواميم اللواتي سُبعت وبالمفصل التي قد فُصّلت

وعن أبي عبيدة والفراء أن قول العامة الحواميم ليس من كلام العرب وتبعهما أبو منصور الجواليقي.

وقد عدت آيها أربعاً وثمانين في عد أهل المدينة وأهل مكة ، وخمساً وثمانين في عد أهل الشام والكوفة ، واثنتين وثمانين في عد أهل البصرة. ٢٤/٧٧

٣ـ **أغراض هذه السورة** : تضمنت هذه السورةُ أغراضاً من أصول الدعوة إلى الإيمان؛ فابْتُدِئَتْ بما يقتضي تحديَ المعاندين في صدق القرآن كما اقتضاه الحرفان المُقطَّعان في فاتحتهما كما تقدم في أول سورة البقرة.

وأجري على اسم الله ـتعالىـ من صفاته ما فيه تعريضٌ بدعوتهم إلى الإقلاع عما هم فيه؛ فكانت فاتحةُ السور مثلَ دِيباجةِ الخُطْبَةِ مشيرةً إلى الغرض من تنزيلِ هذه السورة.

وعَقَّب ذلك بأن دلائلَ تنزيلِ هذا الكتابِ من الله بَيِّنَةٌ لا يجحدها إلا الكافرون من الاعتراف بها حسداً ، وأن جدالهم تَشْغِيبٌ ، وقد تكرر ذكر المجادلين في آيات الله خَمْسَ مرات في هذه السورة ، وتمثيلُ حالهم بحال الأمم التي كذبت رسل الله بذكرهم إجمالاً ، ثم التنبيهُ على آثار استئصالهم ، وضربُ المثل بقوم فرعون.

وموعظةُ مؤمن آل فرعونَ قَوْمَهُ بمواعظَ تُشبه دعوة محمدﷺ قومه.

والتنبيهُ على دلائل تفرد الله ـتعالىـ بالإلهية إجمالاً.

وإبطالُ عبادة ما يعبدون من دون الله.

والتذكيرُ بنعم الله على الناس؛ لِيشْكُرَه الذين أعرضوا عن شكره.

والاستدلالُ على إمكان البعث.

وإنذارُهم بما يَلْقَون مِنْ هَوْلِه، وما يترقبهم من العذاب، وتوعدهم بأن لا نصيرَ لهم يومئذ، وبأن كبراءهم يتبرؤون منهم.

وتثبيتُ الله رسولَهﷺ بتحقيقِ نصرِ هذا الدينِ في حياته وبعد وفاته.

وتخلَّل ذلك الثناءُ على المؤمنين، وَوصفُ كرامتِهم، وثناءُ الملائكة عليهم.

وورد في فضلِ هذه السورةِ الحديثُ الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «**من قرأ حم المؤمن إلى ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيْرِ﴾ وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح**».

٢٤/٧٧ـ٧٨

٤ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً﴾.

هذه مقالة أخرى لفرعون في مجلس آخر غير المجلس الذي حاجّه فيه موسى ولذلك عطف قوله بالواو كما أشرنا إليه فيما عطف من الأقوال السابقة آنفاً، وكما أشرنا إليه في سورة القصص، وتقدم الكلام هنالك مستوفى على نظيره معنى هذه الآية على حسب ظاهرها، وتقدم ذكر (هامان) والصرح هنالك.

وقد لاح لي هنا محمل آخر أقرب أن يكون المقصود من الآية ينتظم مع ما ذكرناه هنالك في الغاية ويخالفه في الدلالة، وذلك أن يكون فرعون أمر ببناء

صرح لا لقصد الارتقاء إلى السماوات، بل ليخلُوَ بنفسه رياضة، ليستمد الوحي من الرب الذي ادعى موسى أنه أَوحَى إليه إذ قال: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾.

فإن الارتياض في مكان منعزل عن الناس كان من شعار الاستحياء الكهنوتي عندهم، وكان فرعون يحسب نفسه أهلاً لذلك؛ لزعمه أنه ابن الآلهة، وحامي الكهنة والهياكل.

وإنما كان يشغله تدبير أمر المملكة؛ فكان يكِل شؤون الديانة إلى الكهنة في معابدهم، فأراد في هذه الأزمة الجدلية أن يتصدى لذلك بنفسه؛ ليكون قوله الفصل في نفي وجود إله آخر؛ تضليلاً لدهماء أمته؛ لأنه أراد التوطئة للإخبار بنفي إله آخر غير آلهتهم، فأراد أن يتولى وسائل النفي بنفسه كما كانت لليهود محاريب للخلوة للعبادة كما تقدم عند قوله ـتعالىـ: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ﴾ وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ ومن اتخاذ الرهبان النصارى صوامع في أعالي الجبال؛ للخلوة للتعبد.

ووجودها عند هذه الأمم يدل على أنها موجودة عند الأمم المعاصرة لهم والسابقة عليهم. ١٤٥/٢٤ـ١٤٦

٥ـ **وكلمة: ﴿لا جَرَمَ﴾** بفتحتين في الأفصح من لغات ثلاث فيها، كلمة يراد بها معنى: لا يثبت، أو لابد؛ فمعنى ثبوته؛ لأن الشيء الذي لا ينقطع هو باق وكل ذلك يؤول إلى معنى حق وقد يقولون: لا ذا جرم، ولا أنَّ ذا جرم، ولا عَنَّ ذا جرم، ولا جَرَ بدون ميم ترخيماً للتخفيف.

والأظهر أن (جرم) اسم لا فعل؛ لأنه لو كان فعلاً لكان ماضياً بحسب

صيغته، فيكون دخول (لا) عليه من خصائص استعمال الفعل في الدعاء.

والأكثر أن يقع بعدها (أنَّ) المفتوحة المشددة؛ فيقدر معها حرف (في) ملتزماً حذفه غالباً.

والتقدير: لا شك في أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة.

وتقدم بيان معنى (لا جرم) وأن جرم فعل أو اسم عند قوله -تعالى-: ﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمْ الأَخْسَرُونَ﴾ في سورة هود. ١٥٤/٢٤